مجلة جامعة طبرق للعلوم الاجتماعية والإنسانية

مجلة علمية محكمة تصدر نصف سنوياً

فئة الخصيان في المجتمع البيزنطي ما بين النص القانوني ورأي الكنيسة في العصر الوسيط

Eunuchs in the Byzantine Society between law and Church in the Middle Ages

د. سعيد محمد سعيد غريدة

أستاذ مشارك / كلية التأريخ والحضارة جامعة السيد محمد بن علي السنوسي الإسلامية – البيضاء

Saeidgrida@gmail.com

العدد: الثاني عشر

يناير 2023 م

الملخص :

شكلت طبقة الخصي جزءًا مهمًا من تكوين طبقات المجتمعات والحضارات في العصور القديمة والوسطى ، وخاصة المجتمع البيزنطي ، حيث لعبت هذه الطبقة دورًا لا يمكن إغفاله في التاريخ السياسي والحضاري ، وهي أروقة السلطة نتيجة لقربهم منه وطبيعة المهام التي تم تكليفهم بها .كما تعرض إحدى الظواهر التي سادت بين الشعوب ، خاصة في العصر الوسيط ، وعلى وجه الخصوص في المجتمع البيزنطي ، حتى نتناول من خلالها تعريف هذه الفئة (الخصيان) ، وما هي نظرة المجتمع البيزنطي إلى لهم دورًا فاعلًا في هيكلها المجتمعي ، وبيان رأي القوانين البيزنطية فيها ، وما هو موقف الكنيسة المسيحية من هذه الظاهرة كما تعكسه المصادر البيزنطية كتب التاريخ واللغة .تأتي أهمية الموضوع في أنه من الموضوعات التاريخية والحضارية التي سكت عنها الباحثون والمؤرخون ، ولعل سبب الابتعاد عنه ذو حساسية خاصة ، في الأول نقدم تعريف ظاهرة الخصي في اللغة والمصطلحات ، والمحور الثاني يروي تاريخها عبر التاريخ الروماني والبيزنطي.

Abstract:

The eunuchs Class formed an important part of the composition of the Classes of societies and Civilizations in the ancient and medieval eras, especially the Byzantine society, as this Class played a role that cannot be overlooked in political and Civilized history, the corridors of power, because of their proximity to it and the nature of the tasks they were assigned and singled out for.

It also presents one of the phenomena that prevailed among peoples, especially in the Middle Age, and in particular in the Byzantine society, so the s 'definition of the (eunuchs) will be addressed, and What is the Byzantine society view as an active part in its societal structure, and the statement of the Byzantine laws regarding them , and What is the attitude of the Christian Church regarding

this phenomenon as reflected in the Byzantine sources history books and language .

The importance of this study that it is one of the historical and civilizational topics that has not been raised by most historians, as it is one of the most sensitive issues. Firstly, the definition of eunuchs in language and terminology will be presented. Then, this research will present their history during Roman and Byzantine eras

المقدمة:

شكلت فئة الخصيان جزءًا مهماً من التركيبة الطبقية للمجتمعات والحضارات بالعصور القديمة الوسيطة ، وخاصة المجتمع البيزنطي حيث لعبت هذه الفئة دوراً لا يمكن إغفاله بالتاريخ السياسي أو الحضاري، وكان لهم الأثر السياسي والعسكري والاجتماعي، والدور الكبير في صياغة بعض الأحداث السياسية والعسكرية و تحريكها ، والمشاركة في المؤامرات التي تحاك داخل أروقة السلطة، نتيجة قربهم منها وطبيعة المهام التي كلفوا بها وأخصوا من أجلها .

كما تطرح هذه الدراسة فئة من فئات المجتمع البيزنطي ، من حيث نوعها بوصفها ظاهرة مثلت ثقافة سادت لدى شعوب العصر الوسيط وبالأخص في الإمبراطورية البيزنطية ، لنعالج من خلالها التعريف بهذه الفئة (فئة الخصيان) ، وما نظرة المجتمع البيزنطي لهم كونها جزءًا فاعلا في تركيبة المجتمع ؟ ، وبيان رأي القوانين البيزنطية فيهم ، و ما موقف الكنيسة المسيحية من هذه الظاهرة كما تعكسها المصادر البيزنطية وكتب التاريخ و اللغة ؟ وما الدور الذي لعبته هذه الفئة وكان له التأثيرُ السياسي والحضاري؟

وتأتي أهمية هذا الموضوع في أنه من المواضيع التاريخية والحضارية المسكوت عنها من قبل الباحثين والمؤرخين ، وربما كان من أسباب الابتعاد عن الخوض فيها أو السكوت عنها ، أنها لها حساسية خاصة في مفرداتها ومصطلحاتها ، التي يرى بعض هؤلاء الباحثين والمؤرخين الابتعاد عنها والامتناع عن ذكرها ، ولكنها تبقى جزءًا مهما من التاريخ ولا يصح إغفاله ، لكن هذا لا يعني إغفاله بالمرة وإن كانت الكتابات التي تناولته قد أشارت بشكل متواضع جداً لهذه الفئة دون التفصيل .

نهدف من خلال طرحنا لهذه الظاهرة، معالجة ظاهرة مهمة من الظواهر التي سادت في مجتمعات التاريخ الوسيط ، وخاصة المجتمع البيزنطي الذي كانت هذه الفئة من فئات المجتمع وطبقاته ، التي كان لها الأثر الكبير في كثير من مجريات الأحداث السياسية والصراعات الداخلية ، كما أن هذه الدراسة تغطي جانباً مهماً من الجوانب الحضارية بالتاريخ البيزنطي والمكتبة التاريخية .

ويتبع الباحث منهج السرد التاريخي وتحليل المعلومات و معالجتها ومقارنتها للوصول إلى الحقيقة التاريخية لكشف الغموض من خلال الرجوع إلى المصادر الرئيسة ، وقد جاءت هذه الدراسة في ثلاثة محاور المحور الأول نعرض فيه ظاهرة الإخصاء في الاصطلاح البيزنطي والبعد التاريخي ، المحور الثاني نناقش فيه الرأي القانوني بالظاهرة في القوانين البيزنطية وموقف الكنيسة منها ، ويأتي المحور الثالث في تبيان الأثر الحضاري والسياسي لفئة الخصيان في المجتمع البيزنطي .

المحور الأول / ظاهرة الإخصاء في الاصطلاح البيزنطي والبعد التاريخي .

الإخصاء في الاصطلاح البيزنطي :-

استعمل مصطلح الإخصاء بمرادفات متنوعة منذ وقت مبكر في التاريخ البيزنطي ، فيقول تشارلز ليرلي موريسون Charles. L .M (أن فقيه في القرن الثالث الميلادي Ulpian كان يستخدم مصطلح Spadones للغير القادرين جنسياً ويقول أنه يمكن إطلاقه أو ينطبق على الخصيان الذين تم إخصائهم [1]

كما استعملت مصطلحات من قبل الرومان مع اختلاف نوع الإخصاء استعيرت من اللغة اليونانية ، مثل Spado التي جذرها من الفعل اليوناني (المسيل للدمع) ويذكر ماثيو كويلفر أن الكلمة Thlibein تعني الضغط بشدة أو ربط الصفن بإحكام من أجل قطع الأسهل بدون بتر وبهذا تبدو الأعضاء التناسلية طبيعية .[2] وهناك رأي يقول إن كلمة خصي أصلها يوناني Eunokhos وتعني حرفياً الذي يحرس Eune مخدع النساء، إذ أن الخصيان عند اليونانيين وغيرهم مكلفون بمراقبة النساء والإشراف على سلوكهن في القصور والحيلولة دون القيام بما يتنافى مع واجب الزوجية . [3] وقد استمدت كلمة خصي في اللغة اللاتينية من الكلمة اليونانية التي تعني " حراسة " حراسة مخادع النساء. [4]

ويشير Lenfant إلى أن الكلمة ترجع إلى الأصل اليوناني Eunokhos " إينوخوس" وتنقسم حرفياً إلى شقين OUXOC الذي تعني يحرس أو يحافظ على، والشق الثاني EUNE أي " السرير" أي الشخص الذي يحرس ويحافظ على السرير ، أو حامي السرير أو مخدع النساء ، إذ أن الخصيان عند

اليونانيين وغيرهم كانوا مكلفين بمراقبة النساء والإشراف على سلوكهن داخل القصور ، والعمل على خدمتهن[5] بينما يعارض Grey هذا الرأي ويرى أن أصل الكلمة هو أصل سامي وقديم ، وأنها تعني " الحاشية و " أهل الثقة [6] الذين يضع بهم الحكام الثقة داخل مخادع النساء .

وفي الكتاب المقدس تأتي كلمة (الخصي أو المخصي) بكلمتين الأولى saris ساريس (العبرية ، العهد القديم) والثانية uneouchos (اليونانية ، العهد الجديد) وتستخدم كلتا الكلمتين بمعنى " موظف أو قائد [7] وقد أثار المصطلح العديد من المناقشات وخاصة لتشابهه مع المصطلح الأكدى القديم sa resi ، إلى جانب ظهور موقفين رئيسيين حوله بين علماء الأشوريات ، يرى أولهما أن المصطلح يشير دائماً إلى الرجال المخصيين الذين يظهرون بدون لحي ، في حين يرى ثانيهما أن المصطلح لا يرتبط بالخصيان [8] ويرى آخرون أن مصطلح saris " ساريس " قد نشأ من الكلمتين الأشوريتين هما sa و resi بمعنى هو الذي في الرأس ، ومن ثم لا توجد علاقة مباشرة لهذا الأصل بعملية الإخصاء ، إذ أن الكلمة تشير فقط لشخص مسؤول في منصب ما ، كما يرى البعض أن المعنى الثاني لهذا المصطلح يشير إلى عملية الإخصاء والخصي ذاتها سواء كانت نتيجة عيب خلقي أو بفعل الإنسان [9] وتجد ارتباطا بين المصطلح sa resi وبين كلمة EUVOUXOC اليونانية ، إذ أطلق كلاهما على الخصي والمخصيين . [10]

وفي اعتقادي أن كلمة " ساريس " saris التي جاءت عند أغلب المؤرخين وفي أغلب المصادر التاريخية القديمة والحديثة وهي تعني خصي ، وهي المصطلح الذي يعبر عن هذه الظاهرة قديماً وبالعصر الوسيط ، حيث تمت الإشارة للمصطلح في سفر إستير إلى أن saris ساريس هم المسؤولون المعنيون برعاية النساء داخل القصور الملكية . [11]

وهي بذلك تشير إلى الخصيان الذين كانوا يقومون بهذه المهام داخل القصر ، ويمكن القول إن الخصيان الذين أجريت لهم عملية خصي بالفعل كانت لهم حرية الحركة بين الداخلية والخارجية للبلاط الملكي بوصفهم نوعا من الجنس الثالث ، فلا هم محسوبين بالذكورية ولا على النساء ، ومن ثم فلا خوف على النساء منهم ، وهذا يؤهلهم خدما للنساء الملكيات أو كحلقة وصل بين الملك والملكة ومراسلين وخدم خاص وحملوا تسمية الخصيان لقبا لهم .[12]

البعد التاريخي للظاهرة :-

وجدت ظاهرة الإخصاء عند الأمم والمجتمعات منذ القدم ومارستها الإمبراطوريات واستعملها الملوك والأباطرة في التاريخ القديم والوسيط ، إذ ظهرت هذه الظاهرة منذ عصور ما قبل الميلاد ، ويمكن القول إن المصدر الرئيس للخصيان هي الحروب وتجارة العبيد التي كانت سائدة في تلك الأزمان الذين يشكلون مادة الإخصاء

، ولم يحدد تاريخ ظهورها بشكل دقيق ولكنها كانت في الحضارات القديمة مثل حضارة بلاد الرافدين القديم بوصفها من أقدم الحضارات ، ويأتي ذكرها في أقدم النصوص المسمارية بأن الرقيق كانوا منذ عصر فجر السلالات أي النصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد. [13]

يذكر أن الرومان هم أول من ابتدع الإخصاء ، وبالتأكيد هذا القول غير دقيق لأن ما مر علينا من الكلام السابق يوضح أن الإخصاء معنىً ومصطلحاً يرجع تأريخه إلى عصور أقدم من تاريخ الرومان ،[14] وأن المصدر الأول لهذه الفئة هي الحروب وتجارة العبيد التي تترتب على الهزائم التي تتعرض لها الشعوب في حروبها ، إذ كان هؤلاء العبيد يتعرضون لعملية الإخصاء وهم صغار ، الأمر الذي يساعد على رفع أسعارهم مقارنة بالعبيد غير المخصيين .[15]

فلم تكن ظاهرة الإخصاء والمتاجرة بالخصيان جديدة على المجتمع البيزنطي، فقد استعمل البيزنطيون فئة الخصيان في وقت مبكر من تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ، وقد ورثوها عن أسلافهم الرومان ، وكان الخصيان في قصور الأباطرة البيزنطيين من أجل خدمة نسائهم ، وكثر عددهم حتى وصفت بيزنطة بجنة الخصيان ، وأن العائلات النبيلة لم تكن تستبعد التنكيل بأبنائها وإخصائهم أحياناً ليوقفوهم في خدمة دور العبادة ،إلا أنهم يحرصون على عدم الإضرار بالقضيب ، بحيث يتعرضون للخصيتين فقط [16] وكانت ممارسة الإخصاء تأتي كعقوبة أيضاً على جرائم معينة ،وكانت سمة من سمات العصر البيزنطي ، ففي أسواق بيزنطة يباع العبد الخصي بأربعة العبد غير الخصي [17] وقد مارسها النصارى وتكسبوا من تجارتهم بهذه الفئة . [18]

كما تطورت فئة الخصيان في مهامها وأعمالها في الإمبراطورية البيزنطية فأصبحت لهم رتب خاصة بهم ، نظراً لقربهم من الإمبراطور البيزنطي ، ولكونهم جديرين بالثقة من الإمبراطور، تمكن بعضهم من القيام بمهام رئيسية وشغلوا مكانة مهمة في القصر والبلاط وخارجه ، حتى أنهم عقدوا لواء الأمرة في الجيش والأسطول البيزنطي ، ولكن كانت هناك مناصب ومهام محذورة عليهم كمنصب والي المدينة ، فلا شك أن الخصيان شكلوا طبقة مهمة يعتمد عليها الأباطرة في بيزنطة ، ولن تتداخل حالتهم الجسمانية مع أخلاقهم وشخصياتهم ، فلم يكونوا أكثر فساداً أو تأمراً من غيرهم ، [19] والواقع أن الخصي في بيزنطة لم يوصف بالعار، إلا بعد أن دخلت من الغرب الأوربي مفاهيم الفروسية والجنس ، وتكونت طبقة من الموظفين لمواجهة الإقطاعية المنتشرة في الإمبراطورية البيزنطية . [20]

فنجد الخصيان كان لهم نصيب وافر وكبير بالنسبة للمناصب بالقصر وحظوة لدى الإمبراطور البيزنطي ، تمتعوا من خلالها بنفوذ وصلاحيات واسعة ليس بسبب أهمية المسؤوليات التي أسندت إليهم ، ولكن بسبب

ملازمتهم لشخص الإمبراطور وتملقهم ومداهنته بحكم طبيعة عملهم ، وكان كبار موظفي الحكومة يخشونهم لقربهم من الإمبراطور ، وتأثيرهم الشخصي عليه ، فيكنون لهم الكراهية لأنهم نافسوهم وتدخلوا في شئونهم ، فالخصيان لم يكونوا مجرد أُناس يعملون بالبلاط الإمبراطوري ، لكنهم لعبوا دوراً أساسياً في التحكم في السلطة وتسيير أمور الإمبراطورية ، وكذلك توطيد النفوذ الإمبراطوري وتدعيمه.[21]

وردت الوظائف الخاصة بالخصيان في التكتيكا taktika [22] وهي القوائم التي تضم الرتب في الإمبراطورية البيزنطية ، وقد خصصت للخصيان في هذه القوائم ، قائمة عرفت باسم كلترولوجيون Kleterologio وهي مرتبة تصاعدية حسب رتبة المخصي وأهمية وظيفته ، ومنها على سبيل المثال نيسيستاريو Nipsistiarioi وهم الموظفون المسؤولون عن جلب الماء والقيام بأعمال الاغتسال والاستحمام الخاصة بالإمبراطور ، وهم يرتدون قميصاً من الكتان وعليه شارة مميزة لرتبته ، ويتميز رئيس هذه الفئة بارتدائه سترة بيضاء بباقة عريضة مطرزة بالذهب. [23]

وكان الحارس المسلح الذي يحرس الإمبراطور يسمى السباثارو كوبيكولايري Spatharo cubiculaire، وحراس الأبواب Ostiarios والبرامكيريوس Primikerios الخصي المسؤول على غرفة نوم الإمبراطور ، وهناك كبير الحجاب وهو يشرف على العدد الكبير من الحجاب العاملين بالقصر ، وكان يجوب البلاد ويتفقد أحوالها ، وأصبح مسؤولاً عن الشؤون المالية والإدارية للاحتفالات المختلفة ، وكان عين الإمبراطور على كل شيء ، وهمزة الوصل بينه وبين العالم المحيط . [24]

كما منح لقب patrikios للنبلاء من الخصيان وقد أدخله الإمبراطور قسطنطين الأول (306-337م) كلقب شرفي دون وظيفة إدارية محددة وشارة هذا اللقب عبارة عن شكل دائري من العاج عليه نقوش وكتابات مختلفة [25]

وهنا نرى أن فئة الخصيان كما ذكرنا سلفاً , ليست مقتصرة على العبيد المخصيين، والذين تم إخصائهم لغرض القيام بأعمال داخل القصر الإمبراطوري فقط ،إنما كان هناك مخصيون من طبقة النبلاء، حيث كانت العائلات النبيلة تخصي أبناءها في بعض الأحيان للخدمة في الأديرة والكنائس وللمحافظة على سلوكهم يتم إخصائهم ، وبهدف الوصول إلى مراتب في المناصب الكنسية، وكانت ممارسة الإخصاء تأتي بوصفها عقوبة أيضاً على جرائم معينة ، أو لمنع المخصي من الوصول للعرش البيزنطي .[26]

ومن مهام فئة الخصيان لوسلاي Louslai وهي تعتني بشئون الحمامات الإمبراطورية ، و Kandelaptai الفئة المسئولة عن إنارة القصر ، Kaldarioi وهي المسئولة عن تدفئة القصر ، Horologoi وعن الأوقات و تحديد مواقيت الصلاة وقرع الطبول أو الأجراس للتنبيه على مواقيت الخدمة

المقدسة والصلاة [27] وبذلك استعمل الأباطرة الخصيان في مناصب كنيسة وعلى رأسها منصب البطريكية ، الذي يمثل رأس الهرم الديني في الكنيسة ،لكي يجمعون السلطة الزمنية والدينية بين أيديهم .

ويلي هذه المهام حامل الكأس Cuphearer للإمبراطور وآخر للإمبراطورة ، وهو ساقي ومسئول عن توفير المشروبات و إحضارها ، وهو يرافق الإمبراطور في كل مكان حتى حينما يغادر القصر .[28]

ويأتي مسئول الولائم Atrikineo وهو اسم مشتق من الكلمة اللاتينية Trictiniu التي تعني الولائم ، وكان مسئولاً أيضاً عن تصميم الدعاوي التي ترسل للحضور وتنظيم المقاعد واستقبال الضيوف وترتيبهم حسب المكان المحدد لهم ، ودعوتهم لحضور الولائم ، كما كان مسئولاً عن الفرق الموسيقية التي هي من ضمن بروتكولات الحفلات أو الجلسات الخاصة [29] كما تعد من أهم الوظائف في القصر الإمبراطوري وظيفة Parakimomenos وهي وظيفة المسئول عن غرفة الإمبراطور الغرفة الإرجوانية المقدسة ، ويجب عليه حمايتهم أثناء النوم حيث سمح له بحمل السلاح للحماية [30]

يتضح من خلال هذه المهام التي كلف بها الخصيان في داخل القصر الإمبراطوري ، أن هذه الفئة تولت معظم وظائف الخدمة الخاصة بشخص الإمبراطور وعائلته ، بحيث كانوا متابعين للإمبراطور في الأمور الخاصة والعامة ، وبذلك كانوا ملاصقين له وقريبين منه ومن عائلته ويعلمون ما يدور داخل القصر الصغير من الأمور الكبيرة ، وعليه فإن دورهم كان كبيراً وخطيراً في الوقت نفسه ، حتى أنهم تم استغلالهم ، أو أنهم شاركوا في مؤامرات القصر التي تحاك من حين لآخر .

الحقيقة أن دور الخصيان لم يقتصر على أعمال الخدمة الخاصة بالأباطرة وأسرهم والإشراف على تنظيم الاحتفالات والمراسم المختلفة ، ولكنهم ظهروا في مراتب ومناصب مهمة في الإمبراطورية البيزنطية إدارية وعسكرية ودينية ، كما استطاع الخصيان تسيير أمور الحكم في كثير من الأحيان سواء داخل القصر أو خارجه ، كان من الطبيعي أن يتنامى ويتردد صدى نظرة تجاه الخصيان داخل المجتمع البيزنطي ، وهي نظرة اتسمت بتناقض شديد ظهر واضحاً في كتابات المؤرخين البيزنطيين وبعض مواقف الأباطرة ، غير أن وجود الخصيان في المجتمع البيزنطي كان أمراً ضرورياً ، أولاً لكون المجتمع البيزنطي مجتمعاً ذكورياً ، يقوم على أساس عزل المرأة ، وثانياً كانت الحاجة لوجودهم للقيام ببعض الأعمال التي يصعب على الجنسين القيام بها ، كتربية الأطفال وتعليمهم وخاصة الفتيات ، ومن هنا أصبح وجود الخصيان أمرا مقبولا في إطار محدد ، وهو إطار خدمة الطبقة الأرستقراطية وخدمة البلاط ، ولكن عندما تخطى الخصيان ذلك تنامت ضدهم الشعور بالكراهية والبغض من قبل الطبقة الأرستقراطية سواء المدنية أو العسكرية ، وذلك لسيطرة

الخصيان على كثير من الوظائف المدنية والعسكرية ولقربهم من الأباطرة ، وقدرتهم على توجيه شؤون الإمبراطورية بطرق مباشرة أو غير مباشرة .[31]

المحور الثاني / القوانين البيزنطية وموقف الكنيسة من ظاهرة الإخصاء .

من ناحية ظهرت بعض القوانين والتشريعات التي منحت هذه الفئة بعض الحقوق ، التي أكدت على أن وجودهم أصبح أمراً مقبولاً داخل المجتمع البيزنطي ، وهكذا أخذت النظرة تأخذ منحنى إيجابي في المجتمع ، أسهم في ذلك فئة الخصيان أنفسهم باكتسابهم كثير من الصفات التي ساعدت على اندماجهم داخل المجتمع البيزنطي، وخدمتهم بالبلاط الإمبراطوري ولدى الطبقة الأرستقراطية بجودة عالية في تنفيذ أعمالهم ، كما ساعدتهم النشأة التي يخضع لها الخصيان حيث أصبحت عملية الإخصاء تقام داخل المجتمع البيزنطي ، وهو ما يؤكد أن وجودهم أصبح مقبولاً .

بالرغم من ذلك فإن المصادر البيزنطية تتناقض في نظرتها للخصيان من خلال الصورة التي تعكس نظرة المجتمع لهم ، حيث تأرجحت بين السلبية التي ترى بأن الخصيان أسوأ فئة على حد تعبير المؤرخ البيزنطي كدرنيوس Cedrenus ، ونظرة إيجابية ترى فيهم أشخاصا صالحين يفيدون المجتمع البيزنطي .[32]

من الملاحظ وكما أسلفنا أن بعض المصادر التي تحدثت عن الخصيان ،استمرت على نهجها الذي بدأت به قبل القرن التاسع في رسم صورة سلبية لهم ورفض وجودهم في المجتمع البيزنطي ، في الوقت الذي ظهرت كتاباتهم بالثناء عليهم أو بالإيجاب ، إن أتوا بأفعال تستحق ذلك ، ويرجع ذلك إلى الدور البارز الذي كان يمارسه الخصيان في الحياة السياسية والاجتماعية ، وهو ما عبر عنه ثيوفانيس بقوله عن الخصي ستراكيوس في بداية القرن التاسع الميلادي : أنه على رأس كل شيء [33]) وهو يعني أنهم كانوا على رأس كل شيء وهذا ما جعل النظرة تتأرج ما بين الرضا وعدم الرضا برغم أنهم واقع مكون من طبقات المجتمع البيزنطي .

وكذلك يمكن القول أن وقوف الخصيان أمام طموح أفراد الطبقة الأرستقراطية في الاستيلاء على العرش والمناصب العليا في الإمبراطورية البيزنطية ، وخاصة في الأوقات التي تتولى فيها العرش امرأة أو طفل قاصر ، إذ كانت غالباً ما تسلم الأمور للخصيان ، على نحو ما فعلت الإمبراطورة إيرين مع الخصي ستركيوس الذي كان يدير كل الأمور على حد تعبير ثيوفانيس [34] وعلينا الأخذ في الاعتبار أن الذين كانوا يكتبون عن الخصيان هم من الطبقة الأرستقراطية التي كانت رافضة لوجود الخصيان في الإمبراطورية

أما بالنسبة للقوانين البيزنطية بدءاً من قوانين جستنيان الأول (527-565م) وقانون الإيكلوجا Ecloga الذي أصدره الإمبراطور ليو الثالث الايسوري (717-741م) وابنه قسطنطين الخامس (741-775م) فهي تحرم الاستيلاء على الرجل الحر وبيعه عبداً ، كما نصت وقوفها ضد التشويه البدني للعبد مثل الخصي والجدع أو قطع اليد أو شيء من أعضائه .[35] كما جاءت قوانين ليو السادس في القرن العاشر الميلادي كخطوة إيجابية في سبيل دمج الخصيان في المجتمع البيزنطي ، بل يمكن القول إنها ساعدت على تغير نظرة المجتمع البيزنطي إلى الخصيان ، وقد عرف عن ليو السادس حبه لفئة الخصيان على عكس والده باسيل الأول الذي أحجم عن تعيينهم في وظيفة البراكيموميونوس .[36]

فجاءت قوانين ليو السادس بحظر عملية الإخصاء ، لأنها تؤدي إلى وضع مخلوق يختلف اختلافاً شديداً عن المخلوق الذي أراده الله أن يكون .[37] وبدافع حبه للخصيان وتعلقه الشديد بهم خفف أحكاماً كانت مطبقة من قبل ، فألغى عقوبة الإعدام التي كانت تطبق على الممارسين لتلك العملية ظناً منه أن القانون القديم قانون وحشي ، كما اكتفى بعقاب من يجلبون الخصيان إلى القصر الإمبراطوري بإبعادهم من البلاط ، وفرض عقوبات مالية على من هم خارج البلاط ، كما عفى ليو السادس Leo VI عمن خصوا بقرار من الأطباء ، إلى جانب أنه منح الخصيان حق التبني الشرعي للأطفال تعويضاً لهم عن حرمانهم من الخلفة [38]

كما أنشأ الإمبراطور ليو السادس Leo VI سنة 886م ديراً خاصاً بالخصيان ، وهو دير لاذاروس Lazaros وألحقه بالكنيسة ، وقام بمكافأة الخصي قسطنطين البافلاجوني أمر ببناء دير لتخليد اسمه في نوسيا Nosiai [39]

وبهذا أصبحت نظرة المجتمع للخصيان تأخذ الجانب الإيجابي ، حيث إن النص القانوني أي القوانين البيزنطية قد منحتهم حقوقاً لم يحصلوا عليها من قبل ، وبذلك أصبح الخصيان يتكيفون بالمجتمع البيزنطي ويندمجون به ، كذلك تقبل المجتمع وجودهم بحكم القوانين والمصالح الإيجابية التي اظهرتهم بالصورة الإيجابية بتحقيق المنفعة وليس العكس .

أما بالنسبة للكنيسة فقد شغل الخصيان مناصب كنسية عدة ، وعلى رأسها منصب البطريركية والبطريرك يمثل في العقيدة الكنسية المسيحية أعلى المراتب الدينية بعد منصب البابا في الكنيسة ، وبذلك ينال درجة من القدسية ، وكان الأباطرة البيزنطيون يحرصون على أن يكون لهم الدور الأول في اختيار البطاركة ، ولما كان الخصيان مقربين للأباطرة وأكثر ثقة بهم ، فقد عملوا على أن يكون البطاركة من الخصيان الموثوق بهم ، ليحكم سيطرته على السلطتين الزمنية والدينية ، كما لجأ الأباطرة لإخصاء أبنائهم

في بعض الأحيان وإعدادهم لشغل هذا المنصب وهو منصب البطريرك بهدف السيطرة الكاملة على الكنيسة ، مثلما فعل الإمبراطور رومانوس ليكابينوس حين قام بإخصاء ابنه الأصغر تيوفلاكت Theophylact وأخذ يعمل على تعليمه وتدريبه للوصول إلى عرش البطريركية.(40)

والأمثلة كثيرة على وصول الخصيان إلى مناصب بالكنيسة وخاصة منصب البطريركية في الإمبراطورية البيزنطية غير أن المجال لا يتسع لذكرها جميعها ، وعليه فإن وصول الخصيان وتوليهم المهام بالكنيسة وانخراطهم بالسلك الكنسي استمر ، وتذكر لنا المصادر وصول الخصي كالبووديوس Calipodias الذي كان مشرفاً مالياً الإيكونوموس الأعظم The Great Oikonomos لكنيسة أيا صوفيا بالعاصمة البيزنطية في مدينة القسطنطنية [41]

كما تولى الخصيان مناصب ومهاما أخرى بالكنيسة ، ومنها رئيس الدير وهو المسؤول عن قيادة الرهبان بالدير ، ومنهم من وصل لمرتبة القديسين مثل القديس نكتاس البافلاجوني Niketas the Paphlagonian . [42] , وعلى نحو ما انتشر الخصيان في الكنائس كذلك انتشروا في الأديرة ، بل أصبحت لهم أديرة خاصة بهم على غرار أديرة الرهبان والراهبات ، وقد عاش الخصيان في أديرتهم حياة الرهبنة ، والتي تناسبت مع وضعهم الفسيولوجي والجسماني المتمثلة في قطعهم لعلاقاتهم الدنيوية وأهمها الأسرية .[43]

هكذا كانت مكانة الخصيان في الحلقة الأولى التي تحيط بالإمبراطور ، إلى جانب مكانتهم في الكنيسة والوظائف والمراتب التي أسندت لهم ، فكانوا عندما يخرج الإمبراطور نحو الكنيسة ليؤدي الطقوس والصلوات التي يساعده فيها رئيس الخصيان ، وتأتي الحلقات الأخرى المرافقة للإمبراطور ومنها عدد كبير من رجال البلاط ومسئولي الخزانة وحاملي الصلبان وصور المسيح والقديسين ، في تنظيم حلقة بعد حلقة ، لا تدخل على مسار الإمبراطور المحاط بفئة الخصيان .[44]

وبذلك أصبح الخصيان ذوي مكانة متميزة داخل الإمبراطورية البيزنطية بشكل عام ، وليس في البلاط والكنيسة فقط ، وشكلوا ثقة كبيرة وقوة لا يستهان بها أبداً ، حتى أنهم لم يعد بينهم وبين العرش البيزنطي حائلاً ، بل إنهم مثلوا في القرنين العاشر والحادي عشر حائلاً قوياً بين السلطة والطبقة الأرستقراطية من جهة ، وبين الإمبراطور وأفراد الطبقة الحاكمة من جهة أخرى .[45]

وفي النهاية نجد مسار الأحداث ، خاصة عندما نتناول طبقة من طبقات المجتمع البيزنطي ، أو فئة مثل الخصيان ، الذي وضح من خلال الدراسة انحنى المؤشر لقبولهم بالمجتمع البيزنطي بين السلبي والإيجابي ،

إلا أنه هناك حقيقة تبين أن المجتمع البيزنطي مجتمع مفتوح ، فعلى الرغم من وجود الكثير من الفئات الأرستقراطية المتميزة ، التي شكلت الطبقة العليا والتي تفتخر بنسبها وعراقة أصلها بالمجتمع ، إلا أن تلك الطبقات العليا لم تكن منغلقة على نفسها ، فمن السهل أن يطمح الفرد من الطبقات الدنيا للدخول ضمن فئات الطبقات العليا ، مثلما كان لمكانة فئة الخصيان في المجتمع البيزنطي .

الخاتمة :

اتضح مما سبق تناوله أن النظرة المتناقضة التي عكستها المصادر البيزنطية ، رسمت صورة سلبية لهم ورفض وجودهم في المجتمع البيزنطي ، في الوقت الذي ظهرت كتاباتهم بالثناء عليهم أو بالإيجاب ، إن أتوا بأفعال تستحق ذلك ، ويرجع ذلك إلى الدور البارز الذي كان الخصيان يمارسونه في الحياة السياسية والاجتماعية.

تبين الدراسة أن الدور البارز الذي لعبته فئة الخصيان ،أدى إلى تنامي مشاعر الحقد والاستياء لدى أفراد الطبقة الأرستقراطية والتي كان المؤرخون جزءا منها ،أ, أنهم كان لهم دورٌ في إسقاطها على هذه الفئة .

ورغم هذه المواقف للمجتمع البيزنطي ،إلا أنه كان في حاجة لفئة الخصيان ، بوصفه مجتمعاً محافظاً .

أبرزت الدراسة الدور الذي لعبه الخصيان في تغيير النظرة السلبية بقيامهم أعمال كثيرة وبجودة عالية وثقة معتمدة .

واتضح أن الطبقة الارستقراطية نفسها قامت بخصي أبنائها لأسباب دينية وسياسية

أما بالنسبة للقوانين البيزنطية بدءاً من قوانين جستنيان الأول وقانون الإيكلوجا Ecloga الذي أصدره الإمبراطور ليو الثالث الايسوري وابنه قسطنطين الخامس فهي تحرم الاستيلاء على الرجل الحر وبيعه عبداً ، كما نصت وقوفها ضد التشويه البدني للعبد مثل الخصي والجدع أو قطع اليد أو شيء من أعضائه .

وعلى الرغم من موقف القوانين البيزنطية من ظاهرة الإخصاء إلا أنها تبنت فئة الخصيان وخاصة قوانين ليو السادس بحظر عملية الإخصاء ، لأنها تؤدي إلى وضع مخلوق يختلف اختلافاً شديداً عن المخلوق الذي أراده الله أن يكون وبدافع حبه للخصيان وتعلقه الشديد بهم خفف أحكاماً كانت مطبقة من قبل ، فألغى عقوبة الإعدام التي كانت تطبق على الممارسين لتلك العملية ظناً منه أن القانون القديم قانون وحشي ، كما اكتفى بعقاب من يجلبون الخصيان إلى القصر الإمبراطوري بإبعادهم من البلاط ، وفرض عقوبات مالية على من هم خارج البلاط ، كما عفا ليو السادس عمن خصوا بقرار من الأطباء .

من خلال الدراسة تبين أن المجتمع البيزنطي مجتمع مفتوحٌ ، فعلى الرغم من وجود الكثير من الفئات الأرستقراطية المتميزة ، التي شكلت الطبقة العليا والتي تفتخر بنسبها وعراقة أصلها بالمجتمع ، إلا أن تلك الطبقات العليا لم تكن منغلقة على نفسها ، فمن السهل أن يطمح الفرد من الطبقات الدنيا للدخول ضمن فئات الطبقات العليا ، مثلما كان لمكانة فئة الخصيان في المجتمع البيزنطي .

الهوامش:

. [1]Cassius Dio on Nervan " Ligislattion. Nieces and Eunuchs " by Charles Historia : Leslie Murison (68.2.4) Zeitschrift fur Alte Geschichte ,Bd ,53,H,3. (2004),pp343-355

[2]Mathyu, Kuifilar ,the Masculine Eunuch, Gender Ambiguity ,and Christian Ideology in Late Antiguity the Manly Eunuch , university of Chicago, press: 2011 ,p

[3] أ.م.د. محمد عبد الله عبد فزع المعموري ، أ.م.د. يوسف كاظم جغيل الشمري : الخصيان والمترجلة في الدولة العربية الاسلامية حتى عام 656هـ/1258م - دراسة في أوضاعهم السياسية والاجتماعية والفكرية ، كلية التربية للعلوم الإنسانية ، جامعة بابل ، العراق ، ص169

[4]Branch ,R .G,' Joakim,Uzziah ,and Bagoas, Aliterary , Amaiysis of Seiected Secondary Characters in the Book of Judith' OTE 25l1 ,(2012)P72 note 80

[5], p268)Lenfant ,D., ' Ctesias and his Eunuchs .A Challenge for Modern Historians' Histos 6, (2012

[6]Retief, F.P., & Cilliers ,J,F,G,& Riekert,S,P,J,K, 'Eunuchs in the Bible',Acta theological, Vol26, No2,Supplementum7, (2006)p248

[7]Retief,F,P, op cit , 247

[8]Lenfant D, op ,cit ,p280

[9]Retief,F,P, op cit , 248

[10]Ibid, p280

[11]Olmstead ,A .T, History of the Persian Empire , Chicago,& ,London ,(1948)p90

[12]Jones ,L,L .,King and Court in Anciernt Persia 559 to 331 BCE,Edinburgh (,2013) p5-35

[13]H .W.F ,Saggs , The Greatness that was Babylon . London ,1966.p159

[14] أ.م.د. محمد عبد الله عبد فزع المعموري ، أ.م.د. يوسف كاظم جغيل الشمري : الخصيان والمترجلة في الدولة العربية الاسلامية حتى عام 656هـ/1258م - دراسة في أوضاعهم السياسية والاجتماعية والفكرية مجلة كلية التربية للعلوم الإنسانية ، جامعة بابل ،(بد ،ت) ص 169

[15] منى عبدالقادر صالح علي : الخصيان في العصر الأخميني (559- 330 ق. م) مجلة كلية التربية ، الإسكندرية ، ص5

[16] فاطمة قدورة الشامي : الحضارة البيزنطية (323- 1453م) ، ، دار النهضة العربية ، بيروت 2002 ، ص18

[17] أدم متز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريدة ، ط2 – طباعة ونشر لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة ، 1957 ،ج2 ، ص152 - H .W.F ,Saggs , op cit , p159

[18]Ibid , p.159. H .W.F ,Saggs

[19]Skylitzes , Asynopsis of Byzantine History, 811- 1057 Nov Justxxll,p 169-170 ,john

[20] زاهية قدور : المرجع السابق ، ص18

[21] وسام عبد العزيز فرج ، الألقاب والمناصب الحكومية في بيزنطة بين الاستمرارية والانقطاع ، بيزنطة قراءة في التاريخ السياسي والإداري ، القاهرة 2004 ، ص42-43

[22]taktika (912 -959م) التكتيكا وهي قوائم نشرت كملحق بكتاب المراسم الإمبراطورية للإمبراطور قسطنطين السابع ثم أعاد الأستاذ بيوري نشرها بشكل مستقل مع ترجمة وتعليق عام 1911م ، انظر Bury, J, the Imperial Administrative System In the Ninth Centry With a Revised Text of the Kletorologion of philotheos , london ,1911. ,p131-179

[23]Bury , op, cit , p122

[24]Guilland, R,' Etudes de Titulathure Byzantine,Les Titres Auliques Reseves ,aux E p79

[25]Bury ,J,the Imperial Admimistrative,p124

[26]Theophanes ,continuatus , Chronographia, ed I ,Bekker ,CSHB, Bonnm ,1838. .p409

[27]Bury , op ,cit .p128

[28] فاطمة إسماعيل عبدالله : دور الخصيان في الدولة البيزنطية في الفترة من القرن التاسع حتى القرن الحادي عشر الميلادي ، رسالة ماجستير غير منشورة ، إشراف أ.د عليه عبدالسميع الجنزوري و أ.د أحمد إبراهيم الشعراوي ، د. ناهد عمر صالح ، كلية البنات ،جامعة عين شمس ، 2014م ، ص73

[29] المرجع نفسه ، ص 73

[30] Bury , op, cit ,p124

[31] فاطمه إسماعيل عبدالله : الخصيان وسيط مثالي في مجتمع ذكوري ، بحث في كتاب دراسات في الحضارة البيزنطية 1(المجتمع البيزنطي) مشاركة مجموعة بحاث ، تحرير د. عبدالعزيز رمضان و مصطفى الشعيني ، دار الحياة ، القاهرة ، 2017 ، ص28

[32]Cedrenus ,G, Historiarum Compendium . ed .I. Bekker . CSHB.Bonn .1839, vol 2, p29

[33]Theophanes, Chronicle of Theopanes .p629

[34]Ibid , p 629

[35] مبروكة كامل ضيف يوسف : الوضع القنوني للعبيد في بيزنطة من القرن السادس إلى القرن الحادي عشر الميلادي ، دراسة في الثابت والمتغير في القالب التشريعي ، كلية التربية ، جامعة دمنهور ، القاهرة ، (بد، ت) ص179

[36]Tougher, sh, the reign of Leo VI ,p198

[37]Leo , VI, les Novelles No ,60 pp222

, [38] Leo VI , Les Novelles No 60, p222, No 26, pp 102-104

[39] فاطمه إسماعيل عبدالله : الخصيان وسيط مثالي في مجتمع ذكوري ، المرجع السابق ، ص 39

[40]Skylitzes , Synopsis of Byzantine History , p398

[41]Ringrose , The perfect servant , p,117

[42]Ringrose , The perfect servant op ,cit , p,124

[43]Ibid ,p124

[44]Woodrow , Imperial Ideology , p47

[45]Theophanes ,continuatus , Chronographia ,p842

قائمة المصادر والمراجع :-

1- Bury, J, the Imperial Administrative System In the Ninth Centry With a Revised Text of the Kletorologion of philotheos , london ,(1911)
2- Branch ,R .G,' Joakim,Uzziah ,and Bagoas, Aliterary , Amaiysis of Seiected Secondary Characters in the Book of Judith' OTE 25l1 ,(2012)
3- Cassius Dio on Nervan Nieces and Eunuchs " by Charles. Historia : Leslie Murison " Ligislattion (68.2.4) Zeitschrift fur Alte Geschichte ,Bd ,53,H,3. (2004)
4- Guilland, R,' Etudes de Titulathure Byzantine,Les Titres Auliques Reseves ,aux E.
H .W.F ,Saggs , The Greatness that was Babylon . London ,(1966)
5- Theophanes ,continuatus , Chronographia, ed I ,Bekker ,CSHB, Bonnm1838 .
6- Jones ,L,L .,King and Court in Anciernt Persia 559 to 331 BCE,Edinburgh (2011)
7- Mathyu, Kuifilar ,the Masculine Eunuch, Gender Ambiguity ,and Christian Ideology in Late Antiguity the Manly Eunuch , university of Chicago, press: 2011.
8- Lenfant ,D., ' Ctesias and his Eunuchs .A Challenge for Modern Historians' Histos 6, (2012)
9- Olmstead ,A .T, History of the Persian Empire , Chicago,& ,London ,(1948)
10- Retief, F.P., & Cilliers ,J,F,G,& Riekert,S,P,J,K, 'Eunuchs in the Bible',Acta theological, Vol26, No2,Supplementum7, (2006)
11- Skylitzes , Asynopsis of Byzantine History, 811- 1057 Nov Justxxll ,john.
12- Woodrow ,Z, Imperial Ideology in Middle Byzantine Court Cultere ; the Evidennce of Constantine porphrogenitius,s De Cermoniis, Durham universtly (2001.)
13- Leo, VI, Les Novelles de léon VI le sage ,Trans & A Dain, paris ,(1944 .)

14- أدم متز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريدة ، ط2 – طباعة ونشر لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة .
15- أ.م.د. محمد عبد الله عبد فزع المعموري ، أ.م.د. يوسف كاظم جفيل الشمري : الخصيان والمترجلة في الدولة العربية الاسلامية حتى عام 656هـ/1258م - دراسة في أوضاعهم السياسية والاجتماعية والفكرية مجلة كلية التربية للعلوم الإنسانية ، جامعة بابل ،(بد ،ت)

16- فاطمة قدورة الشامي ، الحضارة البيزنطية (323-1453م) ،دار النهضة العربية ، بيروت 2002
17- فاطمة إسماعيل عبدالله : دور الخصيان في الدولة البيزنطية في الفترة من القرن التاسع حتى القرن الحادي عشر الميلادي ، رسالة ماجستير غير منشورة ، أ.د عليه عبدالسميع الجنزوري و أ.د أحمد إبراهيم الشعراوي ، د. ناهد عمر صالح ، كلية البنات ،جامعة عين شمس ، 2014م .
18- مبروكة كامل ضيف يوسف : الوضع القنوني للعبيد في بيزنطة من القرن السادس إلى القرن الحادي عشر الميلادي ، دراسة في الثابت والمتغير في القالب التشريعي ، كلية التربية ، جامعة دمنهور ، القاهرة ، (بد، ت) .
20- منى عبدالقادر صالح علي : الخصيان في العصر الأخميني (559- 330 ق. م) مجلة كلية التربية ، الإسكندرية .

21- وسام عبد العزيز فرج ، الألقاب والمناصب الحكومية في بيزنطة بين الاستمرارية والانقطاع ، بيزنطة قراءة في التاريخ السياسي والإداري ، القاهرة 2004 .